ودواوينهم القديمة شاهدٌ على ذلك كما ترى في قصائد الهلهل وغيره

وكان لليونان كَلَف بالروايات الخيالية وليست قصائد اوميروس البليغة في أشيل وعُوليس سوى صنف من الحكايات الغزلية التي تستند الى بعض حوادث تاريخية . وكأنها بالشعر ايضاً . واوّل رواية خيالية وردت عندهم في النثر اذا استثنينا امثال ايزوب (ايمان) اسمها « في غرائب ما وراء تولة » مدارهُ على خبر اسفار عجيبة كاسفار السندباد البحري . وفي العصر التالي صنّف أريستيد الملطي الأقاصيص الملطية وهي حكايات غزلية مثانية للآداب كَلِف بها معاصروهُ . وجاء بعدَهُ غيرهُ من الكتبة فسلكوا مسلكهُ في صقلية وقد ذهب الدهر بكتبهم غير مأسوفٍ عليها الّا ان الكتّاب الرومانيين كارتيفيوس ولوسيان وأكريلة نقلوا عنها في تآليفهم في آخر عهد الجمهورية الرومانية

امّا الرومانيون فلم يبرعوا بتصنيف الحكايات الخيالية ولا يُذكر لهم غير حكاية بسيخي (Psyche) وتآليف بترون وكلُّها موسوم بالخلاعة وسوء الآداب تنطق باسان حالها عمّا جُبل عليه اهل ذلك الزمان من القبائح والرذائل . وقد جاء بين كتبة عصرنا من مثالهم دعارةً وقبحاً وقانا الله من شرهم

هذا ولمّا صارت الدروس اليونانية الى انحطاط وتقهقُر نما فيها عدد كتبة الروايات التخيُّلية . فكتب ألسيفون وأرستيتيت روايات على شكل المراسلات . وبين اعمال ديُون كاسيوس بعض من هذه التصانيف لا تخلو من دقّة وحسن تصوُّر . وتوفّرت بعدئذٍ كتُب الروايات حتّى شاعت في كل انحاء بلاد اليونان ولا حاجة لتعداد كلّ هذه التصانيف التي لا طائل كبير تحتها كروايات رادام وسيمونيس ولوسيب وغيرهم . ثمّ سكنت حركة هذه المؤلّفات مدّة ستة اجيال فتناساها القوم وشُغلوا بشواغل أخر ثنتْ بالعقول الى ما هو انفع لها وانسب بمقامها (ستأتي البقية)

كتاب
تاريخ بيروت

لمحمد بن صالح (تابع لما سبق)

وربّما كان مولد زين الدين بن علي في اواخر أيام والده علي المذكور حتى طابق

زمانهُ زمانيْ جمال الدين وسعد الدين المذكورَين على ما سنوردهُ فيما بعد ان شاء الله . وربَّما كان عليّ المذكور اوَّل من سكن منهم بمرامون (١

ذكر جمال الدين حجّي بن كرامة بن بُختر

قيل انَّ حجّي هذا كان اصغر الاربعة الاخوة اولاد كرامة بن بُختر وانَّ صاحب بيروت هادنهم واستدرجهم الى ان اجتمع الثلاثة الكبار معهُ في الصيد . واما حجّي فكان طفلًا صغيرًا منقطعًا عند امهِ في الحصن وتكرَّر اجتماعهم معهُ في الصيد (٢٢ وهو يعطيهم ويُحسن اليهم وكان معهُ في المرَّة ولدهُ فدعاهم الى عرسهِ . فلمَّا كان وقت العرس نزل الثلاثة الى بيروت فانزلهم صاحبها في بستان ظاهر البلد واعتذر اليهم لايوائهم خارج البلد لكثرة ما اجتمع فيهِ من طوائف الفرنج لوليمة العرس وزاد في اكرامهم . ولمَّا دخل الليل سألهم الحضور الى مجلس خاصّ قد هُيّئ لهم ولملوك الفرنج فدخل الثلاثة الى القلعة ومعهم نفرٌ قليل فكان آخر العهد بهم . وركب صاحب بيروت بمن عندهُ من جموع الفرنج في صبيحة تلك الليلة وطلعوا الى الحصن وكان خاليًا من الرجال . فهرب من كان بهِ ومن جملتهم امُّ حجّي وولدُها حجي فنهبت الفرنجُ الحصنَ وهدموهُ وألقوا حجارتهُ في الوادي ولم يُبقوا لهُ اثرًا واحرقوا القرايا واسروا من تخلَّف عن الهرب وكان الاكثر قد هربوا واستتروا في

---

١) وفي حاشية الكتاب ما نصُّهُ : « ذكر بيان وايضاح لكيفيَّة مُحاصَرة زين الدين ولد شرف الدولة عليّ المذكور : وجدتُ كتاب مُشترى لحجّي بن كرامة بنصف فدَّان من رسطون ابتاعهُ من بحتر بن علي ابن عمهِ . وتاريخ المكتوب المذكور سنة اثنتين وستمائة فدلَّ على انَّ بحتر البائع كان في هذا التاريخ رجلًا كاملًا يبيع ويشتري . واما زين الدين بن علي اخو البائع فكانت وفاتهُ سنة خمس وتسعين وستمائة . ولدلَّ تاريخ المكتوب المذكور كان قبل مولد زين الدين بن علي تدلُّ ذلك على انَّ زين الدين في اواخر ايَّام ابيهِ شرف الدولة علي وانَّ ايَّام زين الدين تأخرت الى ايَّام جمال الدين حجّي واخيهِ سعد الدين . ونسخة كتاب المشترى المذكور ملصوق تجاه هذه الورقة (كذا في الحاشية ولعلَّ هذه النسخة وقعت من الكتاب فاننا لم نجدها فيهِ)

« الدليل على ان زين الدين بن علي متأخر من ايَّام اخوتهِ وابيهِ انهُ ولي عند جمال الدين بن حجّي واخيهِ سعد الدين ولدي محمَّد بن محمَّد (كذا) بن حجّي بن كرامة وتزوَّج اختهما وقيل انها رَبَّاهُ وهو صغير وعلى هذا فيكون اصغر منهما سنًّا »

الشَّراءات والاردية . وقيل انَّ هذه الكائنة وقعت في اواخر دولة الملك العادل نور الدين بن زنكي والملك العادل توفي في الحادي عشر من شوَّال سنة سبع وستين وخمسمائة (١

فلمَّا حضر السلطان الملك الناصر بن ايُّوب لفتح بيروت في الحادي عشر من جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لاقاهُ حجي الى قرية حَلْدا(٢ . فلمَّا فتح السلطان بيروت لمس بيدهِ رأس حجي وقال لهُ : ها قد اخذنا ثارك من الفرنج فطيِّب قلبك . وانت مُستقرّ مكان ابيك واخوتك وكتب لهُ منشورًا علامتهُ « الحمد لله وبهِ توفيقي » تحت سطر بعد البَسْمَلة . ومن مضمونهِ بعد الترجمة : « باجراء الامير جمال الدولة (23) حجّي بن كرامة على ما بيدهِ من جبل بيروت من اعمال الدامور لمَّا وصل الى الخدمة السلطانية . وتحقَّقنا ما جرى عليهِ من جانب الكفَّار خذلهم الله وهو ملكهُ وارثهُ عن ابيهِ وجدّهِ وهي : سرحمور وعين كسور وزَرْطون والدُّوَيْر(٣ وطردلا وعين درافيل (٤ وقرار وذلك حبسًا منَّا عليهِ واحتسابًا اليهِ بمناصحتهِ وخدمته ونهضته في العدوّ المشاغر لهُ » . والتاريخ : « كُتب بارض بيروت في العَشر الآخر من جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » (١١٨٧ م)

ووجدتُ بين المناشير القديمة منشور لحجي اردتُ ان أثبت ذكرهُ هاهنا ليتَّضح انَّ حجي المذكور لحق اواخر دولة الملك العادل نور الدين . وهو منشور من الملك العادل المذكور باسم حجي ويخوّلهُ جبيهة فقط وانَّها من أقطاع حجي بن كرامة امير الغرب واقاربهِ وجعلها باسم ثمانية نفر ولعلَّهم كانوا جُندهُ . تاريخهُ في آخر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة (١١٧٠ م) . وربَّما كان قد كُتب هذا المنشور في صِغَر حجي زيادةً على ما بايدي اخويهِ . وسمعتُ ممَّن لهُ خبرةٌ باخبار السَّلف انَّهُ لمَّا غدرت الفرنج باولاد كرامة

---

١) لا نعلم ما من الصِّحة في خبر هذا الامر الشنيع فانَّنا لم نجد لهُ ذكرًا في كتب الفريين التي لدينا مع كثرة تفاصيلها . وقد رواه ابن سباط

٢) وهي اليوم تعرف بخان حلدا كانت قديمًا بلدة صغيرة

٣) عين كسور من الغرب الاسفل . امَّا الدوير فلعلَّهُ دوير الرمَّان في الجرد

٤) عين درافيل من مقاطعة الشحَّار

كان عُمر حجي بن كرامة سبع سنين فعلى هذا كان عمرهُ في حضور الناصر بن أيُّوب نيفاً عن عشرين سنة (١

وقد وقفتُ على مكاتبة من السلطان الملك الافضل نور الدين علي بن الناصر بن أيُّوب (٢ وهو جواب كتاب ارسلهُ حجي المذكور اليهِ · مضمونهُ ترغيب واستعطاف (٣ ؟) وحثّ على الجهاد وانَّهُ قد أقطعهُ الغربَ جميعَهُ وأن يخلّف اقاربهُ على الطاعة السلطانية تاريخهُ سادس عشر من رمضان سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (١١٩٧) (٣ وكان الافضل صاحب دمشق وفي أيّامه ارسل جيشاً للغارة على الفرنج ببيروت

ووقفتُ ايضاً على منشور لحجي المذكور من الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل (٤ الى بكر بن أيُّوب (٥ العلامة « الحمد لله وهو توفيقي » ومن مضمونه بعد الترجمة باجراء المذكور على ما بيده من جبل بيروت من اعمال الدامور على عادتهِ المستقرّة في أيّام الملك الناصر بن أيُّوب · وتاريخ منشور الملك العزيز في الخامس والعشرين من جمادى الاولى سنة تسع عشرة وستمائة (١٢٢٢ م)

ووقفتُ ايضاً على كتاب لحجي من السلطان بالعلامة المذكورة من مضمونهِ المختصر انَّهُ جهّز الى الفرنج بان يُخرجوا حجي واصحابهُ على عادتهم ورسومهم واطلاقاتهم · وان لا

---

١) حاشية وردت في آخر الكتاب بقلم كاتبهِ : « في هذا القول نظرٌ ويمكن ان يكون لكرامة ولدان اسم الاوّل جمال الدين حجّي وكانت لهُ جبة بمنشور الملك العادل ثم توفّي ورُزق ولداً ثانياً سمّاهُ باسم حجّي فيكون هو الذي لاقى الملك الناصر بن أيُّوب الى حلدا لمّا قدم بيروت والله اعلم »

٢) الملك الافضل هو ابن صلاح الدين الأيُّوبي تولى الامر في دمشق سنة ٥٨٢ (١١٨٦م) الى سنة ٥٩٢ (١١٩٦ م) فانتزعها منهُ الملك العادل عمهُ واعطاهُ بدلها صرخد ثم دخل الديارَ المصرية فولّاهُ الملك المنصور ابن الملك العزيز رتبة الاتابكيّة . ولمّا قصد الملك العادل عمّهُ الديارَ المصريّة واخذها ولّى الملكَ الافضل سُمياطَ فمات بها سنة ٦٢٣ ه (١٢٢٥ م)

٣) في هذا التاريخ نظرٌ لانَّ الملك الافضل كان خُلع من سلطنة دمشق قبل ذلك بسنة كما مرَّ في الحاشية السابقة

٤) هو اخو الملك الافضل وابن صلاح الدين تولّى الديار المصرية عن ابيهِ ثم استقلَّ فيها بعد وفاتهِ سنة ٥٨٩ (١١٩٣ م) توفّي الملك العزيز سنة ٥٩٥ (١١٩٨م)

٥) نظنُّهُ احدَ عمّال الملك العزيز الأيُّوبي ولم نطّلع على شيء من اخباره

يعسروا عليهِ عادةً وإن خالفوا لا يلوموا الّا انفسهم ويضمن لحجي اذا طيّب قلبهُ وشرح صدرهُ ان لا يعسر عليهِ الفرنج. وهذا يدلُّ على مهادنة الفرنج في ذلك الوقت وانَّ حجي ارسل وتشكّى منهم

وحجي المذكور جرى لهُ حوادث كثيرة مع الفرنج لانَّ في ايّامهِ كانت قوّة شوكتهم وكانوا قد قتلوا اخوتهُ واخربوا حصنهم وربّما كان خاطرهُ مكدّرًا عليهم (١ . . .

وقد سمعتُ بعض المتقدّمين يقول لمّا خرب حصن سرخمور سكن حجي واقاربهُ طردلا ثمَّ بعدها اعمّيه واماً عليّ بن بُجتر فانفرد الى عراموز ومنهُ الذرّيّة وسكنوا طردلا ثمَّ بعدها اعمّيه. ومن ولد عليّ المذكور زين الدين وذرّيتهُ الذين سكنوا عراموز وسيأتي ذكرهم ان شاء الله تعالى. وربّما كانت مدّة حجي المذكور طويلةً لانّا قلنا عنهُ انّهُ حضر فتوح بيروت مع الملك الناصر بن ايّوب وعمرهُ نيّف وعشرون سنة وبقي الى بعد السنة الستّمائة سنين كثيرة. ولم أقف لحجي المذكور ولا لوالدهِ كرامة ولا لعمّهِ علي ولا لجدّهِ بجتر على ذكر وفاة ولا مولد. والظاهر لنا انَّ الاقدمين وثقوا بمعرفة اخبار من قبلهم واهملوا الكتابة فنسي من جاء بعدهم اخبارهم ولهذا عملتُ هذه التذكرة لتدوين ذكر السلف. ولمحمّد بن عليّ الغزّي شاعر امراء بني الغرب بيتان من مقامةٍ جعلها مديحًا في السلف وذكرًا لانسابهم:

أبقى حجاةُ كرامةً في بجترٍ وجُمَيهرٍ شرُفت بهِ قحطانُ
فلكندةٍ ولجندبٍ ولمذحجٍ سعدٌ بهِ في طيّهِ نعمانُ (٢

ذكر ولدهِ محمّد بن حجّي

ثم من بعده نذكر ولدهُ الامير نجم الدين محمّد بن حجي بن كرامة. كان في مكان والدهِ حجي وعلى إقطاعاتهِ واملاكهِ وقاعدتهِ في مُثاغرة للفرنج (ستاتي البقية)

---

١) قد ورد هنا في الاصل منشور آخر أعطي لحجي بن محمّد بن حجّي رواهُ المؤرخ هنا سهوًا وقد نبّه عن غلطهِ في حاشية

٢) راجع لفهم هذين البيتين نسب امراء بني الغرب والجدول الاول ص ٣٧٣